



البارودي

فارس الشعراء



قديماً.. حينما كان يجمع الشاعر بين الشعر والفروسية.. فإنه يمتاز عن غيره من الشعراء الذين جذبهم الشعر.. فقد كانت الفروسية تمنح الشاعر صفاتها وكبرياءها.. فينعكس ذلك في كلمات الشاعر فخراً وشجاعة ونبلاً وكرماً.

ولقد حقق ذلك في صورة عصرية فريدة شاعرنا الكبير محمود سامي البارودي فقد أعاد للشعر وجهه وملاحه وإحساسه المفقود.. وأضاف إلى شخصيته صفات الإنسان الفارس الذي تميز بالجرأة والوطنية والنضال المقدس..

والبارودي ولد عام 1840.. وسمي البارودي نسبة إلى إيتاي البارود التي كان أحد أجداده (الأمير مراد البارودي) ملتزماً لها..

وفي سراي والده (باب الخلق) بالقاهرة.. تلقى تعليمه على أيدي أساتذة متخصصين رعوه أفضل رعاية.. وثقفوه أفضل تثقيف..

ويدخل محمود المدرسة الحربية ليتخرج فيها عام 1855 ضابطاً بالجيش المصري.. وأخذ يترقى حتى رتبة الأميرالاي.. واشترك في حروب



عدة منها إخماد ثورة كريت عام 1866.. والحرب بين تركيا وروسيا عام 1877.

واختير مديراً للشرطة ثم محافظاً للعاصمة.. ثم وزيراً للمعارف والأوقاف.

وحينما قامت الثورة العرابية كان واحداً من أبطالها وزعمائها.. وتحقق ثورة عرابي ويقبض على زعمائها.. وينفوا إلى جزيرة سرنديب (سيلان) ويظل البارودي منفياً هناك سبعة عشر عاماً وبعض عام.

وهناك في المنفى تدب بين الزعماء البغضاء والفرقة ويعود البارودي إلى مصر عام 1900 ليستقبل مصر بقصيدة يقول فيها:

أبابل مرأى العين أم هذه مصرُ
فأنى أرى فيها عيوننا هى السحرُ
نواعس أيقظن الهوى بلواحظِ
تدينُ لها بالفتكة البيضُ والسمُرُ
فليس لعقل دون سلطانها حمي
ولا لفؤاد دون غشيانها سترُ
رضيتُ من الدنيا بحبك عالماً
بأن جنونى فى هواك هو الفخرُ



فلا تحسبى شوقي فكاهة مازح

فما هو إلا الجمرُ أو دونه الجمرُ

وكان البارودي حين عاد من منفاه قد انطفأت شعلة شبابه وكف بصره.. وضعف سمعه.. وزاد أمره بؤساً أن الموت تخطَّف زوجته في ريعان شبابه (37 عاماً) وابنته وأصحابه.. فعكف على ديوانه ينقحه ويحذف منه ما لا يروق له.. إلى أن وافاه الموت في ديسمبر عام 1904.

وحياة البارودي حياة نضال وعزة وكرامة.. وكان يستطيع أن يكفى نفسه ما حدث له شأن الجراكسة التى ينتمى إليهم.. لكنه أثر أن يعيش حياة البسطاء من شعبه ويشعر بشعورهم ويناضل من أجلهم.

وربما أعد البارودي ليكون جندياً.. ولم يعد ليكون أديباً.. لكنه حين تخرج فى المدرسة الحربية عكف على كتب التراث العربى يقرأها بشغف ونهم.. وكانت لديه الملكة الشعرية فصقلها ونماها بهذه القراءات المعمقة وحفظه للشعر القديم.

وبالإضافة إلى ذلك كان تلميذاً واعياً فى مدرسة جمال الدين الأفغانى ثم دخل تجارب الحياة والمعارك المختلفة فتشكلت شخصيته تشكياً خاصاً جمع بين الإبداع والفروسية والوطنية الخالصة.

ويهمنا الآن ذلك الشعر الذى شكل موقفه السياسى الوطنى والذى عبر به عن تمرده على السلطة والظلم والاستعمار والفساد.



لقد صور البارودي ذلك الفساد الذى ساد مصر.. وأحدث الفزع فى
قلوب الناس من جراء استبداد إسماعيل وتوفيق وخداعهما للشعب حينما
مالا واستسلما إلى الدخيل الأجنبي.

يقول البارودي مخاطباً الحاكم الفاسد:

يا أيها الظالم فى ملكه أغرك الملك الذى ينفدُ

اصنع بنا ما شئت من قسوة فالله عدل والتلاقى غدُ

وكان من الداعين إلى الشورى وألا يستأثر الحاكم بالحكم.. بل كان
البارودي مشاركاً فى وضع أول دستور حقيقى لمصر يضمن لأهلها العزة
والكرامة.

وكثيراً ما هجا البارودي خصومه وفضح مواقفهم وأساليب تفكيرهم
وفسادهم.. ومن ذلك ما قاله هاجياً نوبار باشا:

وصالك لى هجر وهجرك لى وصلُ

فزدنى صدوداً ما استطعت ولا تألوا

وكيف أود القرب من متلوّن

كثير خبايا الصدر شيمته الختلُ

بك اسودت الأيام بعد ضيائها

وأصبح نادى الفضل ليس به أهلُ

فما نكبةٌ إلا وأنت رسوهُا

ولا خيبةٌ إلا وأنت لها أصلُ



وفى إسماعيل صديق المفتش وزير مالية الخديوي إسماعيل يقول:

يا سابق الشيطان فى فعله
أما كفى أنك من حزبه
لو لم تكن فى الدهر مستوزراً
ما سارع الناس إلى سيه
أنت الذى لولا خول الورى
ما نام من أمن على جنبه
يفعل بالناس أفاعيله
ولا يخاف الله من ذنبه

بل يهجو رجال الحكومة الاستبدادية جميعهم بقوله:

وأناس صحت منهم ذئابا
تحت أثواب ألفة ووداد
أظهروا زخرف الخداع وأخفوا
ذات نفس كالجمر تحت الرماد
فترى المرء منهم ضاحك السد
من وفى ثوبه دماء العباد



حكموا مصر وهى حاضرة الدنيا
فأمست وقد خلت فى البوادي
أصبحت بعدهم جحيماً وكانت
جنة ليس مثلها فى البلادِ

ويدعو البارودي إلى الثورة على الفساد والظلم والاستبداد.. ويصرخ
بأشعار نحو الحرية والاستقلال ورد حقوق الوطن الضائعة.. وكرامة
المواطن.. فيقول:

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا
شكالة الريث فالدنيا مع العجلِ
وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقةٍ
يكون ردا لكم فى الحادث الجَلَلِ
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضاً
لكل متزعٍ سهماً ومُحتَلِ
لا تتركوا الجداً أو يبدو اليقين لكم
فالجد مفتاح باب المطلبِ العُضَلِ
حتى تعود سماء الأمن ضاحيةً
ويرفلُ العدلُ فى ضافٍ من الحُلَلِ



لكن هذا الصراخ يضيع كما ضاع مثله من قبل في مناخ الفوضى والفساد.. وكان توفيق مثلاً لخداع القوى الوطنية فلطالما وعد بالحياة الدستورية والإصلاح قبل أن يعلو العرش.. ثم ها هو يتنكر لكل وعوده حينما صار حاكماً..

وتتوالى الأحداث حتى عام 1881 حين تقدم عرابي وعلى فهمي وعبد العال حلمي بمذكرة يطلبون فيها - نيابة عن الجيش - عزل عثمان رفقي وتعديل قوانين العسكرية بما يحقق العدل والمساواة.

ويحاول الخديوى وعثمان رفقي قتل هذه الثورة.. لكن لم يُجِدِ الخداع هذه المرة.. فتتحرك القوات إلى قصر عابدين ويقبل توفيق مطالب الجيش.. ويصبح البارودي وزيراً للجهادية.

ويحاول البارودي شيئاً من الإصلاح.. فلم يستطع وقدم استقالته وترك القاهرة إلى ضيعته بمركز أجا - دقهلية - محدد الإقامة بأمر رياض باشا.. وبهذا فقدت حركة الجيش نصيراً لها في حكومة الخديوى.

لكنه سرعان ما أدرك أن إبعاده يحمل خطراً على زعماء الثورة فيعود إلى القاهرة متحدياً قرار تحديد الإقامة.. ليجتمع مع الضباط ويأخذ مكانه بين زعماء الحركة علانية.

ثم تحدث الهزيمة في التل الكبير (13 / 9 / 1882) بعد ضرب الإسكندرية من البحر وفشلت الثورة.. وسلمت القاهرة في 15 سبتمبر 1882 ودخلها القائد الإنجليزي ونزل قصر عابدين ورفع عليه أعلام الاحتلال.. ودخل الزعماء السجن.. ومعهم ما يصل إلى ثلاثين ألف مواطن آخرين..



وكان سجن البارودي تجربة عميقة في شعره.. ذلك الفارس الذى لم يعرف فى حياته الأسر ولا القيد.. والذى تقلب فى المناصب حتى رأس الوزارة.

وها هو يصف سجنه الانفرادي عازفاً لحن الوحدة والعذاب ويقول:

شفنى وجدى وأبلانى السهر

وتفشتنى سهادير الكدر

فسواد الليل ما إن ينقضى

وبياض الصبح ما إن ينتظر

لا أنيس يسمع الشكوى ولا

خبر يأتى ولا طيف يمر

بين حيطان وباب موصد

كلما حركة السجان .. صر

يتمشى دونه حتى إذا

لحقته نبأة منى استقر

كلما درت لأقضى حاجة

قالت الظلمة: مهلا لا تدر

أتقرى الشئ أبغيه فلا

أجد الشئ ولا نفسى تقر



ظلمة ما إن بها من كوكب

غير أنفاس ترامي بالشرر

ويستجوب البارودي وزعماء الثورة أمام (محاكم التفتيش) وقد اختير
أعضاؤها من عملاء الرجعية والاستعمار.. فكرسوا همهم لإدانة زعماء
الثورة.. إرضاء للسادة المحتلين.. وإمعانا في التشفي.
ولاقى الزعماء التعذيب ألوانا وألوانا في السجون.. ويخشى المحامون
المصريون الدفاع عنهم.

وأخذت السلطة توقع بين الزعماء الذين يحظر عليهم الاتصال
ببعضهم البعض.. وصودرت أملاك الزعماء جميعهم وشردت أسرهم
وكان البارودي أكثر الزعماء تأثرا.. فهو يملك الضياع الواسعة والقصور
المتعددة.. لكنه لم يلق بالآل لذلك كله.. وكتب يقول:

كل صعب سوى المذلة سهل

وحياة الكريم في الضيم قتل

إن مرَّ الحِمَامُ أعذب وِرداً

من حياة فيها شقاء وذلُّ

أناراض بترك مالى وأهلى

فالعفاف الثراء والناس أهل

لا يلمنى على الحفيظة قوم

غرهم منظر الحياة.. فضلوا



ويحكم على الزعماء بالإعدام ثم يخفف الحكم إلى نفي بعيد في جزيرة
سرنديب.

وهناك في ظلمة النفي والألم يتفجر الشعر من وجدان البارودي ألماً
وشوقاً وذكريات ولوعة تذكروا بما كان عليه أبو فراس الحمداني حينما أسره
الروم وماطل سيف الدولة في مفاداته..

ويزور البارودي طيف ابنته سميرة.. فتداعي عليه الذكريات:

تأوب طيف من سميرة زائرُ

وما الطيف إلا ما تريحه الخواطرُ

ألمّ ولم يلبث وسار وليته

أقام ولو طالت على الدياجرُ

فماذا عسى الأعداء أن يتقوّلوا

على وعرضي ناصح الجيبِ وافرُ

ملكك عقاب الملك وهي كسيرة

وغادرتها في وكرها وهي طائرُ

وتنطلق في القاهرة أقلام مسمومة تريد إرضاء الحاكم فتطعن وتشهر
بالبارودي ورفاقه.. وتصور البارودي طامعاً في الحكم بعد أن يخلع
الخدوي.. فيقول:

يقول أناسُ إنني ثرت خالماً

وتلك هنأتُ لم تكن من خلائقي



ولكننى ناديت بالعدل طالباً
رضا الله واستنهضت أهل الحقائق
أمرت بمعروف وأنكرت منكراً
وذلك حكم فى رقاب الخلائق
فإن كان عصيانا قيامى فإننى
أردت بعصيانى إطاعة خالقى
ومرة أخرى يؤكد المعنى نفسه ويقول:
فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى
ذنب أدان به ظلماً وأغترب
أثريت مجداً فلم أعبأ بما سلبت
أيدي الحوادث منى فهو مكتسب
وما أبالي ونفسي غير خاطئة
إذا تخرص أقوام وإن كذبوا
ها إنها فريئة قد كان باء بها
فى ثوب يوسف من قبل دم كذب



وحينما بلغه موت زوجته الشابة بكى بكاء مرا وأنشد:

يا دهر فيم فجعتنى بحليلة

كانت خلاصة عدتى وعداتى

إن كنت لم ترحم ضناى لبعدها

أفلا رحمت من الأسى أولادى

وتفشل وسائط كثيرة لدى الحكومة لعودة الزعماء إلى وطنهم ويأتى
اليأس على البقية الباقية من عافية البارودي.. فيصور ذلك قائلاً:

أصبحتُ لا أستطيع الثوب أسحبه

وقد أكون وضافى الدرع سربالى

ولا تكاد يدى تجرى شبا قلمى

وكان طوع بنانى كل عسال

هكذا يبكى حظه البارودي.. فلم يعد يقوى على جر ثوبه أو الإمساك
بقلمه ليكتب وقد كان طوع يده كما الرمح المهتز.

وتقرر جمعية الأطباء بسر نديب بعد أن اشتدت عليه وطأة المرض
ضرورة عودته إلى وطنه لمعالجته فى المناخ الذى ولد وشب فيه.

وتستجيب الحكومة بعد موافقة الخديوى عباس ويعود البارودي إلى
الوطن ويزوره رفاقه الخلاء.

وتتدهور صحته يوماً بعد يوم ويفارق الدنيا فى ديسمبر عام 1904
ويبكيه الشعراء والكتاب فارساً وطنياً عانى السجن والنفى من أجل وطنه
العزیز.. وكرامة أبنائه.